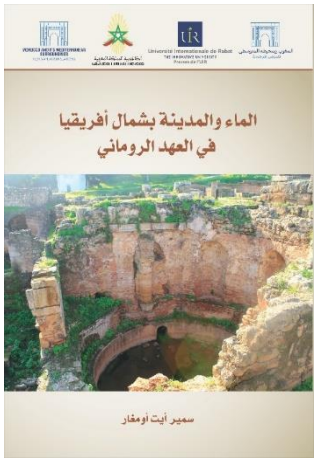


Samir Ait Oumghar. *Al-Māʾ wa-l-madīna bi-shamāl ʾAfrīqyā fī al-ʿahd al-Rūmānī*. Silsilat al-Maghrib wa-muhīṭuh al-mutawassiṭī, nuṣūs wa tarjamāt, no. 9. (Al-Ribāṭ: Manshūrāt al-Jāmiʿa al-dawliya li-Ribāṭ wa ʾAkādīmiyyat al-mamlaka al-Maghribiyya, bi-attaʿāwun maʿa Jāmiʿat Kālīfūrnyā - Los Angeles, 2023), 398 p.

سمير أيت أومغار، الماء والمدينة بشمال أفريقيا في العهد الروماني. سلسلة المغرب ومحطيه المتوسطي: نصوص وترجمات رقم 9 (الرباط: منشورات الجامعة الدولية للرباط، وأكاديمية المملكة المغربية، بالتعاون مع مركز آلان دي ليف للدراسات اليهودية بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجوليس، 2023)، 398 ص.

صدر للأستاذ الباحث سمير أيت أومغار كتاب بعنوان: **الماء والمدينة بشمال إفريقيا خلال العهد الروماني**، ضمن منشورات سلسلة المغرب ومحيطه المتوسطي: نصوص وترجمات رقم 9، دجنبر 2023، ويتكون من 398 صفحة، نال جائزة المغرب للكتاب، فرع العلوم الإنسانية برسم سنة 2024.

قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى عندما نقرأ عنوان هذا الكتاب أن موضوع الماء أصبح مستهلكا لكثرة الأبحاث والدراسات التي تناولته في شقيه الأدبي والأثري، لكن في حقيقة الأمر تبقى للموضوع جدته وراهنيته، وتبقى الحاجة ملحة لمقاربته في جوانبه المتعددة، وفي ارتباطه بالحياة اليومية للناس والمجتمع، وفي تأثيراته الحضارية الكبرى ضمن الحوض المتوسطي، والذي طالما عاش تحت تقلبات المناخ وتحت تأثير الندرة والجفاف، وهي الهواجس التي ظلت تلاحق الإنسان والحضارات التي شهدها هذا الحوض على امتداد التاريخ، ومازلنا في زمننا الراهن نعيش نفس الهواجس ونبحث عن كيفيات تدبير هذه المادة الحيوية والضرورية للعيش

في ظل تقلبات المناخ المستمرة وتحت تأثير ندرة الماء أو اختلال توزيعه على مستوى الزمان والمكان.

لا عجب إذن أن تكون مسألة تدبير الماء ضمن الأولويات الكبرى للإمبراطورية الرومانية التي سيطرت على حوض البحر الأبيض المتوسط، وتحكمت في كل تفاصيل الحياة به خلال العصر القديم، وأن يكون أيضا من أبرز مظاهر تفوقها التنظيمي، فقد أولى الرومان اهتماما خاصا بتوفير الماء وتوزيعه بشكل آمن وفعال ومنتظم في المدن وضواحيها وفي البوادي، وكان ذلک جزءا من تصورهم للتمدن والحضارة...

يمكن تتبع مجهود الرومان في تدبير الماء على المستوى الحضري من خلال العمارة والمشاريع الضخمة المرتبطة بهذه المادة الحيوية والتي تحيل على هواجس تأمين التزود المستمر بالماء وتنظيم استهلاكه وضمان نظافة المدن وسلامة السكان... وقد تجلت هذه المشاريع في قنوات المياه التي جلبت الماء إلى المدن من على بعد مئات الأميال، وفي الخزانات والسقايات والأبراج المائية والحمامات العمومية والخاصة والمراحيض وقنوات الصرف الصحي وغيرها... كما يمكن تتبع هذا المجهود أيضا من خلال الأدبيات الكلاسيكية المؤلفة في العهد الروماني، والتي خصصت أعمالا لموضوع الماء وتدبيره واستعمالاته المختلفة في الحياة اليومية للمواطن الروماني.

يندرج عمل الأستاذ الباحث سمير أيت أومغار ضمن هذا السياق، ويركز على البحث في علاقة الماء بالمدينة بشمال إفريقيا خلال العهد الروماني. وتظهر أهمية هذا العمل في مستويات متعددة أهمها:

إننا أمام عمل تركيبي حاول من خلاله الباحث جمع شتات الدراسات والأبحاث الأدبية والأثرية المنجزة في الموضوع، وأغناها بدراسات متخصصة في موضوع المناخ والعمارة... مما مكنه من تقديم عمله وفق طرح إشكالي قارب فيه العلاقة بين الماء والمدينة بشمال أفريقيا خلال العهد الروماني في جوانبها المتعددة، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية بشكل عام.

كما أنه عمل منجز باللغة العربية، وهذا مجهود معتبر توفق فيه الباحث في التعامل مع المصطلحات والمفاهيم الأثرية، وقدمها للقارئ العربي دون المساس بمعانيها ومدلولاتها وسياقاتها المختلفة، ومن شأن ذلك أن يقرب هذا الموضوع خاصة والتاريخ القديم عامة من عموم الباحثين المغاربة والعرب، ويشجع الطلاب على البحث فيه وسبر أغواره وينهي حالة العزوف التي أصبحت تميز علاقة الطلاب المغاربة بالتاريخ القديم عموما.

كما يعتبر أيضا عملا موثقا بدرجة مكثفة، إذ اعتمد فيه الباحث تبعا لما ورد في البيبليوغرافيا المنتقاة على ما يزيد عن 423 عنوانا موزعا كالتالي: 7 مدونات إبيغرافية و32 مصدرا أدبيا و44 مرجعا مكتوبا باللغة العربية و344 مرجعا أجنبيا. وإذا كانت هذه العدة المصدرية والمرجعية تعكس متانة العمل والمجهود المبذول لتوثيقه، فإنها تحيل أيضا على قلة الأبحاث المنجزة باللغة العربية إذا ما قورنت بنظيرتها المكتوبة باللغات الأجنبية، وهذا ما يعطي للعمل قيمة مضافة على هذا المستوى.

فضلا عن هذا وذاك، هو عمل شامل جمع فيه بين التاريخ المكتبي والميداني، وحاول تقديم قراءة هدفت إلى تحقيق ما ورد في النصوص الأدبية من خلال الرجوع إلى الميدان وإلى نتائج البحث الأثري، وهي مقاربة مهمة أتاحت للباحث، من جهة، تقديم مقاربة شمولية لموضوع الماء في علاقته بالمدينة بشمال أفريقيا خلال العهد الروماني، ومن جهة ثانية، أخرجت شواهد البحث الأثري من سياقها التقني المحض لوضعها في سياقها التاريخي العام بما يتيح توظيف هذه الشواهد لتقديم قراءة تركيبية للماضي القديم في تفاصيله وجزئياته.

أتاح هذا العمل تتبع الإنجازات التي قام بها الرومان في شمال أفريقيا على مستوى التجهيزات والمنشآت والعمارة المائية، وهي إنجازات لا تقل أهمية على تلك التي أنجزت في الضفة الشمالية للمتوسط عامة وفي روما خاصة، وهو دليل على أن الإدارة الرومانية أولت لموضوع الماء أهمية مركزية وبنت عليه وجودها في كل مستعمراتها حول المتوسط سواء داخل المدن حيث سعت إلى ضمان استمرارية تزويد المنشآت العامة والخاصة بالماء، أو في البوادي حيث كان هاجس توطين المعمرين وضمان وصول مياه السقي إلى الضيعات الفلاحية حاضرا بقوة. لقد حاول الباحث البحث في أنماط تدبير الماء واستغلاله داخل شمال إفريقيا وخصوصا

في مدنها، وبحث في مدى تحكم الرومان في تدبير هذه المادة الحيوية بعيدا عن الأحكام الجاهزة التي طالما صنفت الرومان ضمن أكبر الحضارات المبذرة للماء في التاريخ.

قسم الباحث عمله إلى ثلاثة فصول متوازنة راعى فيها كل شروط البحث العلمي الأكاديمي شكلا ومنهجا، فخصص الفصل الأول للبحث في إمكانات وإكراهات علاقة الماء بالمدينة الرومانية بشمال إفريقيا، إذ توقف عند عامل المناخ وتحولاته وأثره على ندرة أو وفرة الماء بالمنطقة، كما ربط بين الماء والاستقرار عموما وركز على آليات تدبير الأخطار المرتبطة بالماء في المدن الرومانية، أما الفصل الثاني فخصصه للاستخدامات الحضرية للماء سواء على المستوى الاقتصادي حيث تطرق لعلاقة الماء بازدهار الحرف والصناعات اليدوية المختلفة، أو على المستوى الاجتماعي حيث ركز على الاستخدامات المنزلية والعمومية للماء داخل المدينة الرومانية بشمال أفريقيا، وخصص الفصل الأخير للتدبير المجتمعي والمؤسساتي للماء، فتوقف عند الجوانب القانونية المتعلقة بتوزيع حصص الماء ولتدبير المنشآت العامة والخاصة، كما أثار موضوع علاقة الماء بالحياة الدينية، وهو ما أتاح التعريف بالمعبودات المائية وإثارة علاقة الماء بالمنشآت الدينية.

وعزز الباحث عمله بـ 37 لوحة توضيحية مكنت من التعرف على جزء هام من الشواهد الأثرية الثابتة والمنقولة التي لها علاقة بموضوع الماء بشمال إفريقيا بشكل عام.

يعتبر هذا العمل مساهمة جادة في إغناء موضوع تاريخ الماء عموما من خلال تسليط الضوء على البنيات والمنشآت والتجهيزات التي أنشأها الرومان في مدن شمال أفريقيا خلال العصر القديم والتي يمكن اعتبارها إنجازات هندسية فائقة الدقة والإتقان، وأيضا من خلال التعمق في تحليل أنماط توزيع الماء واستهلاكه والأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية المتحكمة في استخدام الماء في المجال الحضري، ومن خلال ذلك يمكن فهم الكيفية التي وظف بها الرومان الماء باعتباره آلية لإعادة تشكيل المجال العمراني والحضري داخل شمال إفريقيا القديم، كما يتيح التعرف على أن المدن الرومانية بشمال أفريقيا لم تستنسخ روما وغيرها من مدن الضفة الشمالية للمتوسط بالضرورة، بل كانت مراكز حضرية ذات خصوصية ساهم الماء في تحديد هويتها الحضرية والاجتماعية والثقافية.

يمكن القول بأن هذا العمل قد أسهم بنصيب وافر في تجاوز السرديات التقليدية حول ''الوجود الروماني'' وفي منح نظرة أكثر وضوحا وأكثر توازنا عن طبيعة هذا الوجود، ليس في جوانبه السياسية والعسكرية فحسب، بل أيضا في الجوانب التي تجعل منه فاعلا أساسيا في إنشاء وتشكيل بنيات مدنية أكثر تطورا وازدهارا.

الحسن بودرقا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال